

الفصل السادس

لمحة عن الابتداء

نحن نستعيز بالله من الشيطان الرجيم عندما نقرأ القرآن الكريم ! لماذا ؟ لأن القرآن كشافٌ بعيد السنن شديد الألق يهdy للتي هي أقوم ، ويعصم من الزيغ والزلل !!

والشيطان حريص كل الحرص على أن يسير الإنسان في دروب الحياة لا نور معه ، ولا حصانة له ، لعلّه يتردّى فلا يقوم ، أو يتيه فلا يصل !
من هنا يجب أن يصرف الإنسان عن التلاوة ، ويحرمه بركات الوحي ، فإذا قاومه وبدأ يتلو هجم عليه بالوساوس والهواجس حتى يقرأ بلا تدبّر ولا اتعاظ !
ومن الناس من يباشر التلاوة وقلبه مسروق ومشاعره مُعطّلة ، وليس أولئك عباد الرحمن ، فإن الله وصف عباد الرحمن بقوله : « وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يُخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا » (١) .

لذلك وجب علينا قبل أن نقرأ القرآن أن نستعيز بالله من الشيطان الرجيم : حتى نحسن الفهم والتركية !

وجمهور المسلمين ضمّ إلى الاستعاذة التسمية ، وليس في ذلك حرج ! فالتلاوة أمر ذوبال ، إنها ليست مطالعة صحيفة من الصحف أو كتاب من الكتب ! والبدء باسم الله يتمشى مع الحديث الشائع !

قال بعض قصار العقول : بل البسمة بدعة لا تجوز ! قلت : إذا كان الدليل

(١) سورة الفرقان : ٧٣ .

العام يتناول مسلكا فلا مجال لنسبتي إلى الابتداء ، إذا لم تفعل فدعنى أفعَل ، ولا تثرِب عليّ ولا ألومك على سكوتك !

وتذكرت أن رجلا من الصحابة اخترع صيغة من الأدب العالى فى الثناء على الله ، سمعها النبىّ صلى الله عليه وسلم فسّر بها ونالت رضاه .

أخرج الطبرانى بسنده أن النبىّ عليه الصلاة والسلام مرّ على أعرابيّ وهو يدعو فى صلاته يقول : « يا من لاتراه العيون ، ولا تخالطه الظنون ، ولا يصفه الواصفون ، ولا تغيره الحوادث ، ولا يحشى الدوائر ، يعلم مثاقيل الجبال ، ومكاييل البحار ، وعدد قطر الأمطار ، وعدد ورق الأشجار ، وعدد ما أظلم عليه الليل وأشرق عليه النهار ، لاتوارى سماء منه سماء ، ولا أرض أرضا ، ولا بحر مافى قعره ، ولا جبل مافى وعره ، اجعل خير عمرى آخره ، وخير عملى خواتمه ، وخير أيامى يوما ألقاك فيه » .

فوكّل رسول الله بالأعرابيّ رجلا ، وقال : إذا صلى فأتنى به ، وكان قد أهديّ بعض الذهب إلى رسول الله ، فلما جاء الأعرابيّ وهب له الذهب ، وقال له : تدرى لم وهبت لك ؟ قال الأعرابيّ : للرحم التى بينى وبينك ! قال الرسول الكريم: إن للرحم حقًا ، ولكنى وهبت لك الذهب لحسن ثنائك على الله!!^(١) .

الواقع أن مديح الأعرابيّ لله قطعة من الأدب العالى يعجز عن مثلها المهرة فى فن القول ، وهى جديرة بتكريم الرسول لها ! وهى ناضجة من قلب أشرفت عليه أضواء المعرفة الإلهية ومشاعر الذكر والشكر ، أى أنها متسقة مع الأدلة العامة فى ديننا ..

ولو سمعها بعض الأجلاف لقال هذه بدعة ، كما يصف بالابتداء بدء التلاوة باسم الله ، وختمها بتصديق الله ..

ونزيد الحكم وضوحا فنقول :

إن حياية الدين من البدع المحدثّة فرض لازم ، حتى يبقى على أصله السماوى

(١) رواه الطبرانى

وصلاحيته المطلقة ، فإن بلاء الدين كله جاء من أصحاب الفكر القاصر والقصد المائل والطبع الغالى !

ونحن نعلن حربا شعواء على الغش الثقافى فى ميدان التدين مستصحبين فى هذه الحرب الأثر المشهور: «يحمل هذا العلم من كل خلف عدوله، ينفون عنه تحريف الغالين وانتحال المبطلين وتأويل الجاهلين».

ومن الفقهاء الذين برزوا فى هذا الميدان أبو إسحاق الشاطبى ، وأظنه واضع هذه القاعدة : « ماتركه النبى عليه الصلاة والسلام مع وجود الداعى وانتفاء المانع فتركه سنة وفعله بدعة » . وهى قاعدة جليلة تحمى الإسلام من تقاليد رديئة ، اختلقها المسلمون فى مناسبات كثيرة ، وحسبها العامة دينا وماهى بدين !
ونحن نحترم هذه القاعدة مع إضافة وجيزة تشرحها ! هناك أدلة عامة فى الدين يجب النزول عندها ، بيد أن صورها تتجدد على اختلاف الليل والنهار كفعل الخير مثلا - وهناك أمر به - وكالتواصى بالحق والصبر ، والتعاون على البر والتقوى ، والجهاد بالنفس والمال واللسان ... إلخ .

إن صور الطاعات هنا تكثر وتتغير ، فهل تدخل فى باب الابتداع ؟ كلا !
لكن ما الضابط الذى نحترز به من البدع ؟
المخوف هو تحويل الصورة التى يقوم بها امرؤ ما ، إلى قانون عام يُحمد فاعله ويُذم تاركة ، وكأنما هو وحى من عند الله ...

سئلت عن التلاوة الجماعية للقرآن الكريم فى بعض مساجد المغرب ..؟ فقلت :
لا آمر بها ولا أنهى عنها ، والأحب إلى أن أقرأ وحدى ، وليس لمن يفعلها أن يشد الناس إليها ، أو يلوم من تحلف عنها ...

وسئلت عن شيخ ينصح تلامذته ومريديه بالمحافظة على الوضوء وتجديده كلما انتقض ، قائلا : إن الشعور بالطهارة الحسية يعين على الطهارة الروحية ، ويبعث على التسامى ! فقلت : لم يرد أمر بذلك ، وللصفاء الروحى طرق شتى ، قد يكون من بينها أن يجدد المسلم وضوءه كلما أحدث ..

على أن عدّ ذلك قانونا عاما ملزما لا أصل له ..

إن الغلوّ في الدين قد يتقل من الفرع إلى الأصل ، ومن الجزئيات إلى الكلّيات ، وهو علة ما وقع في أديان سبقت ، وشرد بها عن الصراط المستقيم ، قال تعالى : « قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ » (١) .

والبدع تعرض للناس في مجال العبادات التي لا مجال فيها للفكر البشري لأن مبنائها على التوقف حتى يأذن الله ..

أما الوسائل الحرة لما أمرنا به من جهاد علمي أو مدني أو عسكري ، فلا صلة لها بته بدعة ولا سنة ، وقد تكلفنا الظروف باختراع أمور لاعهد بها للتبيين الأولين ! كغزو الفضاء والسفر إلى القمر أو المريخ ووصف هذه الأمور بأنها بدعة لا يجوز ولا نقبله من أحد .